المجلة العراقية للبحوث الانسانية والاجتماعية والعلمية
Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 Electronic ISSN 2790-1254
العدد 12 A آذار 2024
No.12A March 2024

فانتازيا الحياة والموت في رواية (حاموت)

م.د رشا قاسم فياض العبيدي
كلية الزراعة والأهوار، جامعة ذي قار
rasha@utq.edu.iq

الملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى إيضاح مفهوم الفانتازيا في رواية (حاموت)، من خلال جدلية الحياة والموت، التي شكلت ثيمة بارزة في النص اتكأت عليها الروائية، للتعبير عن الواقع المتهالك والظروف العصيبة - التي مر بها البلد بعد الاحتلال الأمريكي-بتقنياتٍ وأساليب جديدة تحاكي الواقع وتعبر عن مشاكلهِ وتناقضاته، فكانت الفانتازيا خير وسيلة لتجسيد هذه القضايا بما يعتمل فيها من عنف وظلم وتهميش، باعتمادها عناصر جديدة ومغايرة تحيل الواقع المعيش إلى واقع افتراضي يعجز العقل عن تصديقه، ولاسيما أنّ الرواية العراقية بعد 2003عام أخذت على عاتقها مواكبة جميع المتغيرات التي عصفت بالمجتمع وخلفت مضامين متعددة، استدعت أشكالاً فنية حديثة تتماهى مع الواقع الجديد بكل تناقضاته.

الكلمات المفتاحية: فانتازيا، الحياة، الموت، الرواية.

The fantasy of life and death in the novel (Hamut)

Rasha Qasim Fayyad Al-Obaidi
Academic title and degree: Teacher Doctor
College of Agriculture and Marshlands. Dhi Qar University

Summary:

This study seeks to clarify the concept of fantasy in the novel (Hamut), through the dialectic of life and death, which formed a prominent theme in the text that the novelist relied on, to express the dilapidated reality and difficult circumstances - which the country went through after the American occupation - with new techniques and methods that mimic reality and express About its problems and contradictions. Fantasy was the best way to embody these issues, including the violence, injustice, and marginalization that prevailed in them, by adopting new and different elements that transform the living reality into a virtual reality that the mind cannot believe, especially since the Iraqi novel after 2003 took it upon itself to keep pace with all the changes that struck society and left Multiple contents, which called for modern artistic forms that are compatible with the new reality with all its contradictions.

Keywords: fantasy, life, death, novel.

مقدمة:

تعد الرواية من أكثر الفنون الأدبية التصاقاً بالمجتمع، وأكثرها تعبيراً عمّا يعتمل فيه من تحولات سياسية واجتماعية واقتصادية، كونها ((مرآة المجتمع المدني الصاعد، وسلاحه الإبداعي في مواجهة نقائضهِ)) (1)، والرواية العراقية بعد عام 2003 أخذت على عاتقها مواكبة جميع المتغيرات التي عصفت بالمجتمع وخلفت مضامين متعددة، استدعت أشكالاً فنية حديثة تتماهى مع الواقع الجديد، وبذلك وجد الروائيون فسحة كبيرة ((لتحرير قدراتهم الإبداعية والتعبير عن مشكلات واقعهم، الآني بعيداً عن القيود والالتزامات التي كبّلت حريتهم التعبيرية، بصورةٍ إبداعية تعبر عن وعيهم بحجم الفوضى التي

يعيشونها)) (2)، بأساليبٍ متعددة أبرزها الأسلوب الفانتازي، الذي يمثل بعداً رمزياً يعكس من خلالهِ الروائي الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي للبلد.

مفهوم الفانتازيا:

تعد الفانتازيا تقنية سردية حديثة، تتجاوز الواقع المألوف إلى واقع افتراضي متخيل، من خلال طرح عناصر جديدة ومغايرة للواقع المعيش، وبذلك تكون الفانتازيا من الأمور التي يعجز العقل عن تفسيرها، كونها خارجة عن المنطق والمألوف، لذا ((يحاول سبر أغوارها بالخيال، كونها طريقة مثالية لتحرير الطاقات الخيالية))(3).

وبذلك حققت الفانتازيا تطوراً جاداً واثراءً فنياً في المشروعِ الروائي وقراءة الواقع، بتشكيلها لغة متميزة ونصوص مغايرة تتكأ على التغيير والحركة، في واقعٍ حكائي ذا رمزية مكثفة ((تثير الشك في ذهنِ المتلقي، حول انتماء الحكاية لهذا العالم المعيش أو عالم مغاير تماما)) (4).

لقد تعددت تسميات الفانتازيا بين مصطلحات العجائبية، والسحرية، والغرائبية وإن تعددت واختلفت مسمياتها، فهي تحيل إلى مفهوم واحد، وهو خرق المألوف والطبيعي، وتعرف الفانتازيا بأنّها: ((ما يرد في نص قصصي من أحداثٍ أو ظواهر خارقة لا يمكن تفسيرها عقلياً))(5)، فيما يرى (ت. ي. أبتر) أنّ الفانتازيا هي: ((خرق القوانين الطبيعية والمنطق، بيد أنّها من ناحيةٍ أخرى تؤسس منطقها الخاص بها، الذي يعكس جوانب من منطقنا أو قوانيننا المألوفة))(6) ، ويرى (تودوروف) أنّ الفانتازيا هي: ((التردد الذي يحسه كائن لا يعرف غير القوانين الطبيعية، فيما يواجه حدثاً فوق الطبيعي حسب الظاهر))(7) ، ويذهب نقاد آخرون إلى أنّ الفانتازيا هي : عملية تشكيل تخيلات لا تملك وجوداً فعلياً ويستحيل تحقيقها في الواقع(8).

وبذلك تكون(الفانتازيا) مبنية على التردد بين المستويين العقلاني واللاعقلاني، للظواهر التي تنبثق من رحمِ الواقع(9)، كونها تستلهم معطيات ومتناقضات الواقع المعيش، وتعيد صياغتها بطريقةٍ مبتكرة، إذ تحمل (الفانتازيا) في طياتها كثير من الرموزِ والدلالات المعبرة عن صراعات الواقع، التي يعجز الفرد عن مواجهتها، لذلك ينحرف في تعبيره الأدبي عن الواقع المعيش إلى الواقع الافتراضي، إذ يلجأ الروائي إلى عوالم الجن والأحلام والأساطير والمخلوقات العجيبة للتعبيرِ عن هذه الظواهر.

من أسباب لجوء الروائيين إلى توظيف الفانتازيا في كتاباتهم، هو حاجتهم إلى خلق عالم مختلف ومغاير، يوفر لهم مساحة أكبر للتعبير عن رؤاهم وتطلعاتهم برمزيةٍ عالية، فضلاً عن رغبتهم في كسرِ رتابة وجمود الواقع المعيش، ومن هنا وجدوا ضالتهم في الأسلوب الفانتازي الذي يوازي واقعهم بغرابةِ شخوصه وأحداثه، ويعمل على خلخلة سكون الأحداث فهو ((ليس سوى امتياز مؤقت لاستذكارات المخيلة... التي تستمد عناصرها من الواقع وتعيد صوغها من جديد، كما تحرص على انبثاق واقع مجهول وجديد من صلب الواقع الإجتماعي))(10).

يتفرع من الفانتازيا جنسان: هما (العجيب، والغريب) اللذان يبقيان التردد العجائبي فترة زمنية، تنتهي بتبني أحدهما في المتلقي، فاذا إنتهت الأحداث بتفسير عقلاني كانت من جنس الغريب، الذي يحقق شرطاً واحدا من شروط العجائبي(11).

أما العجيب: فهو ((إنّ العناصر فوق الطبيعية، لا تحدث أي رد فعل خاص لا عند الشخصيات، ولا عند القارئ، فليس ما يميز العجيب هو موقفه تجاه الوقائع المروية، ولكنها طبيعة الوقائع بالذات وهي التي تسمه))(12).

يرتبط الأدب الفانتازي بنمو المدن وتطورها وما يرافقها من أحداثٍ وتحولات مجتمعية، فضلاً عن القضايا النقدية التي ترافق هذه المتغيرات، وبذلك تكون الفانتازيا خير معبر عنها، من خلال إقحام المتلقي في عوالم مثيرة تمنحهُ التشويق من ناحية والتردد من ناحية أخرى (13). ومن هنا جاء اختيارنا لرواية (

حاموت) للروائية وفاء عبد الرزاق، التي تتحدث عن فلسفة الحياة والموت بطابعٍ فانتازي عجيب، إذ تتشكل سردية الرواية باستحضار أجواء عجائبية ذات طابع غرائبي ينسجم مع معطيات الصراع بين الحياة والموت.

تعالق الواقعي والمتخيل في بناء الرواية:

يشتغل المنوال السردي لرواية (حاموت) على تشفير السرد ببنية منسوجة من عجائبية الواقع، إذ تتسم الرواية بالمزاوجة بين الواقعي والمتخيل، الذي يعتمد على سرد الأحداث بطريقة فانتازية، فالروائية تجعل المتخيل السردي مستمداً من الواقع ومناقضاً له في الوقتِ ذاته برؤية خيالية مميزة، كما أنّ إختيار عنوان الرواية لا يخلو من القصدية الواضحة، لما يحمله من معاني ترتبط بإيقونة الموت والهلاك وتحيل إلى دلالات الخراب والفناء، عندما استعانت الروائية بكلمة (حاموت) في تناصٍ مع مفردة (الموت) دلالة على حجم المأساة والخراب المتربص بأبناء (حاموت) في مفارقة فانتازية غريبة، إذ يوحي عنوانها المقتبس من حروف كلمتي (الحياة، والموت) بغلبة الموت وسيادته على الحياة في واقعٍ عبثي فوضوي.

تنفتح الرواية على وصف المدينة بصورةٍ سوداوية مرعبة، كناية عن جلبها العذاب والدمار لساكنيها ((حاموت.. مدينة الظلام والكوابيس كأنها غيمة سوداء.. تحاصر سماء أبنائها وتصهرهم واحداً تلو الآخر.. ما هي إلّا صدى أسلحة، شكوى مؤلمة، صوت العتمة الخافت والحزن الوقور.. تتفنن في رنين الخوف لتبقى الأحفاد بلا هوية أو سلام، تصب عفونة الأيام عليهم فتلقيهم للغرقِ... شيء ضارب في السواد))(14).

نلحظ أنّ الروائية في النص السابق قد تحررت من قيود الزمان والمكان، إذ لا نجد إشارة واضحة لأماكن معينة، لذا من الممكن أن تكون (حاموت) هي مدينة بغداد أو أي مكان في العالم يعاني الاضطهاد والخوف، ومحاصر بهواجس الموت والفناء، وهذا ما أكّده كلام الراوي: ((هذه حاموت المشهد الأشد قبحاً الذي لا يخضع إلّا للمظالم بتنا نحترس من (حاموت) الأرض التي نقف عليها نهابها احترازاً للموت.. وتكفير عن ذنبِ خوفنا منها... الناس في حاموت صاروا أفاعٍ.. همهم الوحيد المادة وكيفية الوصول إليها، ونظامهم صار الغاية تبرر الوسيلة))(15).

تعد رواية (حاموت) من أبرز النصوص الروائية التي عمدت الى توثيق الصراع الفكري بين الحياة والموت، في جدلية فانتازية مثيرة عكست انغلاق بنية الوعي المجتمعي ومساهمته في تدمير الحياة، لتصبح اليد المساعدة لشبح الموت (عزيز) الذي يتهدد حياتهم في (حاموت)، إذ يتمركز مسار الرواية حول محورين أساسيين: المحور الأول محور الحياة ويمثله الراوي (محمد) الشخصية المحورية الرئيسة التي تستقطب جميع محكيات الرواية، وتتخذ شكل التناوب والتعاقب بين الواقعي والمتخيل، والمحور الثاني محور الموت ويمثله الشبح (عزيز)، إذ قامت الروائية بتجسيد شبح الموت بهيئة رجل خارق للمعقول، فتارة يتكلم مع أبناء (حاموت) ويتفاعل مع همومهم، وتارة أخرى يطاردهم بوضع بصمة إبهامه كإشارةٍ لاقتراب أجلهم، إنّ الوصف الفانتازي السابق لشخصية (عزيز) جاء بغية تجسيد عدد من القضايا الفكرية والمجتمعية، وتعرية مرحلة عصف الموت بأهل (حاموت) وسيادة شريعة الغاب في المدينة، إذ قدمت الروائية شخصية (عزيز) بصورةٍ تخييلية من خلال مفارقة لافتة ((كلهم في أرضِ حاموت مجرد لعب شطرنج.. بيد شبحٍ كبير يهرب مسرعاً كلما حاولت الوصول إليه... انتشرت في المدينةِ إشاعات عن وجود شيطان يظهرُ في الليلِ ويختفي في النهارِ. أحدهم أجزم أنّه رآه يعتلي حصاناً خشبياً بينما الصبية قالوا أنّهم شاهدوا شخصاً طويلاً جداً، ذا قدمين كبيرتين كأنّهما المسحاة.. تبرع بعض الأهالي بالحراسةِ ليلاً كي يدرأوا خطر الكائن الشيطاني لأنّه جعل أيامهم قلقاً ولياليهم سهراً وخوفاً))(16).

إنّ التقديم العجائبي لشخصية شبح الموت(عزيز) المكثف بدلالات الخوف والتربص، ومعزز بعناصرِ التشويق يسحب القارئ ليغوص في عالمٍ من الفانتازيا، إذ تتجلى الأخيرة في النص بتوليدها الدهشة لإثارة المتلقي وتردده إزاء الواقع الملتبس بالعجيب والغريب في آنٍ واحد، كون هذه الشخصية الشبحية تتناص

مع شخصية (الملك عزرائيل) في الثقافة الإسلامية، التي جسّدتها الروائية بصورة متخيلة، وبذلك أسهمت إسهاماً فاعلاً في إثراء النص السردي من خلال توصيفاتها المنوعة التي تلائم الشخصيات الخرافية والاسطورية، فنراها تظهر بصورٍ متعددة ومتغيرة((خطف الشبح مرتدياً ثوباً أسود مغطياً رأسه بالسوادِ، أسرعت الخطى أتتبع أثره، لعلي أعثر على أي شيء يدلني عليه))(17)، وفي نصٍ آخر يصف الراوي (الشبح عزيز) عبر أقاويل سكان حاموت ((قالت امرأة مهووسة بالشياطين: أنّها شاهدته يقترب من دارها، وحالما تعرفت عليه تحول إلى شجرةٍ، ثم أشارت لشجرة قديمة تأكل ساقها وجذورها))(18)، ومرّة أخرى ((خرج متناهي الغرور بنفسهِ، فهو طويل القامة، ممشوق القوام، ضامر البطن... له نظرة تخترق الأبدان والقلوب))(19). إنّ التغير والتحول المستمر في صفات الشخصية الفانتازية، هو دلالة وكناية عن التحول والتشظّي الذي أصاب البلد بعد الاحتلال الأمريكي وخلف شروخاً عميقة في بنيته المجتمعية، تركت بصمة واضحة في النص الروائي.

لو تتبعنا النصوص السردية في رواية (حاموت) لوجدنا أنّ القيمة الفنية للرواية تكمن في كسرِ أفق التوقع للمتلقي، باستخدام العناصر الفانتازية والتداخل بين المألوف واللا مألوف، بما يمنح النص جمالية فنية لا تتكأ على سطحية المتداول، وهذه سمة الفانتازيا فهي ليست هروبا من الواقع، بقدر ما هي استغواراً فيه، إذ لا توجد رواية فانتازية لا تمتلك جذوراً مع الواقع، لأنّ الجانب الواقعي هو الهدف في التبئير الفانتازي، كونه ((يخضع لتحولات وامتساخات يلجأ فيها الكاتب إلى استعمال غزارة قواه، وحوافزه كي يشهد على الواقع الإنساني))(20)، إذ إنّ مواضيع الرواية الفانتازية مرتبطة بالواقع وإن كانت تفترق عن الخطاب الواقعي، لكنّها تبقى على تماس معه، ونخلص من ذلك إلى أنّ الروائي في الفانتازيا يلامس الواقع بصورةٍ مغايرة للمألوف بعمليةٍ قصدية يهدف من ورائها إلى خلق رموز وايحاءات تنتج تمازجاً بين المؤثر والمثير في آنٍ واحد، لأنّ مزج الذاتي بالموضوعي والواقعي بالخيالي يزيد من الاثارةِ والتأثير، ومن ثم إعادة تشكيل الرؤية الإنسانية للواقع، وعند استنطاق نصوص الرواية نجد كثير من الإشاراتِ والرموز توعز إلى التباس الحقيقة بالخيال، ونلمس ذلك جلياً في الحوار الدائر بين الشبح (عزيز) والراوي (محمد) عندما كان يبحث عن إجابة لتساؤلاته المقلقة وحيرته القاتلة بأنّ ثمة قوة عظمى تفوق قدراته وتوقعاته، تجعله يعود صاغراً لإيمانه بالغيبيات حينما لم يجد إجابة لهذه التساؤلات ((تصاعدت التساؤلات في رأسي.. حتى كدتُ أصاب بالجنون.. هل تجنن كل من يريد معرفتك والاقتراب منك؟

- مازالت بصمتك على بابي... دعنا نتصادق ما اسمك؟
- لماذا جعلت فئةً من الحاقدين والقتلة يعترضون موكب عرس في (حاموت) ويذبحون الموكب كله... لمن كان عقابك وكيف وضعت بصمة ابهامك هنا؟
- كن عادلاً لمرة واحدة وأزح قناعك فنحن في زمنِ الأقنعة... سمعتُ شيئاً مثل حفيف شجرة... بدا كل شيء غريباً عنّي فركت عيني بقوة، ثم ببطء، حتّى رأيتهُ جالساً أمامي تخشبتُ مثل شجرة في قحطٍ، لم أتفوه بكلمة، كل ما فعلهُ أنّه فتح التلفاز وصمت ليسمع نشرة الأخبار))(21).

يحيلنا اللقاء السابق بين الشخصية الواقعية والشخصية المتخيلة، إلى عوالم فانتازية غريبة، إذ يلعب الترقب والقلق دور كبير في اثارةِ الخوف والفزع ولاسيّما بعد تجسد شخصية شبح الموت بهيئة رجلٍ استجابة لنداءات (محمد) وتساؤلاته، لذلك يشعر الأخير بالتردد والشك بين العالم الواقعي والعالم الفانتازي: ((تطلع في وجهي المحتشدة فيه مشاهد الدمار والموت. ..لم استطع توجيه أي سؤال عن بصمته هنا، فقط أصابني الخرس...

- أنا الآن أمامك.. ما الذي تريد معرفته، فقد أرهقتني بتساؤلاتك، وها أنا ذا البس زي رجل وأكلمك رجلاً لرجل.. ونحن معاً الآن يا صاحبي...
- سألتهُ : ما أسمك؟

- قال: عزيز.. وأنت محمد ... دارت الدنيا بي وقعتُ مغشياً ... لا أدري كيف كان شكلي أو شكله لأنّه ظهر بهيأة رجل كما قال، ربما هو ليس انسياً، جنياً مثلاً، أو شبحاً.. إنّما تجلى لي بشكل رجل قوي، شديد البأس هادئ وقور))(22).

يصور النص السابق واقعاً عجائبياً غريباً، إذ يتم توظيف الفانتازيا فيه؛ لتحميلها أحداثاً لا طاقة للتوظيف الواقعي المعيش على تجسيدها، أو الإحاطة بها، كون الفانتازيا هي ((طاقة خلاقة تستقطب الشعور بوساطة المزاوجة بين الحقيقة والخيال))(23).

لقد اتكأت الرواية على شخصيتين رئيستين، شكّلا مجمل أحداث الرواية إذ لا يوجد في الرواية شخصيات رئيسة أخرى، وبدت الشخصيتين متفاعلتين مع الحدث، ومشكّلتين له في الآن نفسه، إذ جسّدا جدلية الحياة والموت بكل صورها الفانتازية الغريبة، وبعدما كان التمثيل للمتخيل (عزيز) معاكساً لحضور الشخصية الحقيقية (محمد)، ألا أنّه فيما بعد عقد معه نوع من الصداقة الغريبة، إذ قدمت الروائية الشخصيتين في حالةٍ من التآلف بين الواقعي والمتخيل؛ كون الجو الفانتازي الذي نسجته الروائية حول شخصية شبح الموت أتاح لهُ الاندماج والانسجام مع شخصية (محمد) الذي أصبح يأنس بوجودهِ وقربه ((صداقة غريبة بين إنسان وشبح.. لكن الأمر مختلف الان .. هو تعلق بي وأنا أحببته، صرنا لا نفارق بعضنا، لو تأخر دقيقة عن موعدهِ أصاب بالجنون... تعلمت منه الكثير، أوضحَ اموراً كانت غائبة عن عيني، ولا تصدقها مخيلتي، حينما قلت ذات يوم:

- أنني أقسم بعلاقتنا القوية، لن اخذلك بعد اليوم..

ضحك...

- لا تقسم أرجوك، زمنكم زمن القسم الكاذب، تتخلون عنه بثوان، وتقسمون بالدين والشرف.

لم أجادله لأنه وضع يده على ماهيتنا الجديدة، نحن ندبة على وجه الإنسانية))(24).

لقد تمكنت الروائية من إقامة علاقة متينة بين الحياة والموت في نصوص الرواية، التي تستمد فضائها التخييلي من الواقع المعيش، إذ تكشف المقاطع السردية عن مدينة محاصرة بالفناء والهلاك، جسدتها ثنائية الموت والحياة في لعبة ضدية، تنتهي بانتصار الموت في مسار فانتازي، وهذا ما عبّر عنه الحوار الدائر بين الشبح (عزيز) والراوي: ((- يا أخي أي قلب انت؟ ما مقياس الخير والشجاعة عندك؟ وما الطاعة أظنك عبد مطيع وخائف، ولا يستبيح الناس ويشرع الظلم الّا الخائف المطيع،... هل يعقل هذا، دمار حاموت بيد عبد؟ لا أصدق..

- أنا سيدك فلا تقل عبداً، والّا نفضت جلدك من دمك بويلي وقوتي وجبروتي وأحلتك جثة هامدة.
- أعرف أنك جبار وقادر على السخط... فأنت عديم القلب.

وأعرف أنك ستضع يدك غداً على عددٍ لا يحصى من الأطفال أو أحصيته أنت وقدرت له سيارة مفخخة، ولكثرة ما رأيت الدم أصبحت مصاص دماء. أشار إلي بإبهامه، خفت منه فالإبهام اشارة للموت: أنت أضعف وأصغر من أن تعرف))(25).

يتجلى التسخير الفانتازي في النص السابق من خلال اسباغ الصفات العجائبية على شخصية (عزيز)، التي شكلت عاملاً فاعلاً في إثراء النص بما تنطوي عليه من أبعادٍ عجائبية، فالقدرات الخارقة والصفات المثيرة للريبة، ما هي الّا وسيلة لتهيئة المتلقي للدخول بالعوالم الفانتازية، إذ تبدو شخصية (عزيز) بجبروتها وقوتها كأنها القدر واليد الكبرى، التي تحوك المصائر وتخطط لها بدقةٍ متناهية ((- العالم يدعوني إلى أخذهم لحياتهم الأبدية، ولا فرق عندي بين هذا وذاك إلّا بطريقة الوصول،... ولكثرة حديث الناس عني وذمّهم لي وخوفهم الشديد من حضوري، فكرت بخلق طريقة تجعلهم ينسوني ساعة المعركة،

ولا يذكرون أسمي على ألسنتهم، شفقة بهم وبخوفهم مني، لو ظهرت لهم بشكلي الحقيقي لماتوا جميعاً في ثانية، وأنت ايضاً...

- أنت قاسي القلب، لم أرَ مثلك في حياتي.
- بل أنا قوي لا أضعف حتى مع أقرب صديق وحبيب إلي أخترقه وأدخل جسده))(26).

إنّ لجوء الكاتب إلى الخطاب فوق الطبيعي من منطق الغيب، لا يعد عملية زعزعة للواقع بقدر ما هي أثبات وتزكية له، كون الخطاب الفانتازي يسلط الضوء على الظواهر والقضايا التي لا يستطيع الكتّاب البوح بها بصورة مباشرة، إذ لم يجدوا سوى الهروب من الواقع المتأزم بمشكلاته ومآسيه إلى عالم افتراضي متخيل، لأنّ الفانتازيا ((تسعى لتقريب الواقع المتناقض للمتلقين بسبلٍ فانتازية، علّ الخيال يُسهم في قدرة المتلقي على فهم الواقع المتشظي))(27)، إذ كثيراً ما يجد المتلقي تشابهاً بين واقعه المعيش والأحداث الفانتازية ، أو قد يجد نفسه هو الشخصية الفانتازية ذاتها في انكسارها وتشظيها وانصدامها بالواقع.

ولاستكمال لعبة السرد الفانتازية، تستعين الروائية بشخصيات عجائبية أخرى، لإكمال النسق السردي، كونها تسهم في أداء الوظيفة ذاتها، وهي الحاق الخراب والفجيعة بأبناء (حاموت)، إذ تقدمها الروائية بصورة مباشرة ((سمعتُ نداءً رهيباً زلزل المكان كله.. كان النداء على شكل سؤال لـ(عزيز)؟

- من بقي يا عزيز؟
- لا أحد يا سيدي، سوى عبدك المطيع، وأخي مكي، وجابر واشرف... ثلاثة أشباح كانوا مع (عزيز) تحولوا إلى كائنات مختلفة، النور يشع منهم وتلتف حولهم هالاتهم المضيئة))(28).

نلحظ أنّ الشخصيات الفانتازية في النص السابق، تتسم بأسماء مناقضة ومضادّة للوظيفة التي تمارسها في الساحة السردية، إذ حملت مسمياتها دلالة الثناء، فـ(جابر) هو أسم من أسماء لفظ الجلالة (الله) يدل على المساعدة وجبر الخواطر، وهي صفات تتعارض مع مهامها وأفعالها التي تمارسها، ومن هنا فلا بد من بعدٍ دلالي قصدت إليه الروائية في استعارة الأسماء السابقة، كونها تحمل دلالة التناقض والتضاد الواضح الذي يعكس صورة القتل والفوضى المستشرية في البلد.

كما وظّفت الروائية قصة المرأة العجوز امعاناً في الفانتازيا، ولتكثيف الدلالة على مصادرة حقوق سكان (حاموت) بالقتل والتهجير، إذ يقول الراوي: ((لملمنا بقايا جثتها وقمنا باللازم. ما استغربته هذه المرة أنّ بصمة الإبهام كانت على جبينها مغمسة بدمها، أتراه غير لون البصمات؟ ... هل هو الشيطان الذي رأته العجوز؟... الشيطان إنتقم من العجوز لأنّها عرفت مكانه، وأشارت إلى الشجرة التي اختبأ فيها. كل ليلة يظهر ويلتف بالظلمة... كما كفت النسوة من الذهاب إلى الشجرة العتيقة والتبرك بها ومسحها بالحناء، صار الخوف من إرث الأجداد والاقتراب منه يعني لأهالي (حاموت)، هو السخط والموت المحتم..))(29).

إنّ الجو العجائبي الذي نسجته الروائية لا يتعلق بشخصية بذاتها، بقدر تعلقها بسكان المدينة ككل. فالمدينة تعكس خذلان أبناء (حاموت) أمام القوى الغيبية، التي عاقبتهم بالموت والهلاك عندما تجاوزت الواقع المعيش إلى واقع افتراضي غرائبي.

لم تنحصر الفانتازيا عند عجائبية الشخصية فحسب، بل تجاوزتها إلى غرائبية المكان كحيز عجائبي يوحي بذوبان الكيان وتلاشيه، إذ يخرج المكان عن إطاره الواقعي ليشكل فضاءً جديداً يتجاوز حدود المكان الحقيقي، ومن هذا المكان تتصاعد الأحداث وتتشابك في حبكة فانتازية مريبة: ((سمعتُ شيئاً مثل حفيف شجرة، أو أطراف ثوب طويل تخطف ريحه قربي.. تمسكت أكثر وشددت كل قوتي. بدا كل شيء غريباً عني، داري، فراشي، أغطيتي ، حتى أنا أصبحت شيئاً بذراعين وعينين... دارت أرض الغرفة

سريعاً وبطيئاً، ثم أسرعت أكثر من ذي قبل، سمعت أنفاساً قوية تحف برقبتي، تطاير شعري وبدني أصبح بخفة طفل وليد ثم ثقل بحمل جبل))(30).

توظف الروائية مدينة (حاموت) بوصفها منفى فانتازياً مرعباً، يعيش الناس فيه بانتظار موت محتم، كون الأخير بدا كاللعنة التي تطارد الجميع وتهدد أمنهم واستقرارهم ((المدينة بين ضجيج العربات والباعة المتجولين، بين نورها وليلها توحدت سابقاً مع لون الحداد القاتم بعد حرب مدمرة أكلت الأخضر واليابس... أغلب أهالي الشباب متوجسون من غدهم من تحول الحياة إلى جهنم ثانية... يتهامسون بخوف عن أخبار جديدة، عن موت محتوم جديد، وحرب قريبة جداً، صاح رجل ملتح أسمر اللون: يا ألهي ارحمنا، الحروب باتت شهيتها كبيرة لأولادنا، هل حق علينا نحن أبناء الخائبة العزاء الدائم؟.. أخرسته زوجته ووضعت يدها على فمه... ضاعت مفاتيح الأفواه، فأصبحت متخمة بالصمت، وهذا سر البلاء الأكبر))(31).

كما تتسع مساحة العجائبية عندما تلجأ الروائية إلى الأساطير المتوارثة والمعتقدات الشعبية، بما يدعم النص إلى مستوى عالٍ من التأويل ويكسر نمطية الواقع فيه، إذ توظّف (شجرة حاموت) لتعزيز دورها في تطوير فانتازيا النص واثراءه ((شجرة حاموت تتغذى الآن على الجثث.. على الجرحى والمجلودين... هل التف الشبح حول الشجرة؟ هل حضر احتضار جذورها؟ ويلك يا حاموت شجرتك مجزأة... انتشرت في المدينة اشاعات عن وجود شيطان يظهر في الليل ويختفي في النهار... قالت امرأة مهووسة بالشياطين: إنّها شاهدته يقترب من دارها، وحالما تعرفت عليه تحول إلى شجرة، ثم أشارت لشجرة قديمة تأكل ساقها وجذورها... مشرعة ساقها الممتد إلى الجذر المعانق للأرض وتتطلع في وجوهنا)) (32).

هكذا تتجلى صورة (حاموت) على امتداد السرد العاصف بالذهن حول قصة شبح الفناء والموت، الذي ترك بصمته في كل رقعة من (حاموت)، مما جعل أبنائها يعيشون في أحضان الرعب والخوف متماهين في استسلامهم للظلم، وخضوعهم لسوداوية القدر والواقع المحيط بهم في فانتازيا كابوسية تحمل في طياتها غرائبية المسكوت عنه، وبروز صخب الواقع وعجائبيته، حيث الاستغراق بمتاهة الحروب والفناء والفقد، وبذلك تكون شخصية (عزيز) هي أيقونة رمزية، للفوضى والعبثية المستشرية في البلد، التي عبّرت عنها الكاتبة بصورة فانتازية مرعبة، من خلال توظيف الشخصية المتخيلة وجعلها منبعاً للعجائبية، التي إرتكز عليها النص السردي.

رؤية في خاتمة:

لقد خرج البحث بمجموعة من النتائجِ يمكن إجمالها على النحو الآتي:

- تتسم رواية (حاموت) بالمزاوجة بين الواقعي والفانتازي، الذي يعتمد على سرد الأحداث بطريقة عجائبية في بنية سردية تستمد فضائها التخييلي من الواقع المعيش.
- كشفت نصوص الرواية عن دور (الفانتازيا) في إعادة هيكلة وتشكيل رؤية المتلقي للواقع المعيش، كما أبرزت رؤية الكاتبة في رفع مستوى حضور الشخصية المتخيلة (شبح الموت)، مقابل الشخصية الواقعية (محمد) وانتصار التخييلي على الواقعي.
- إنّ توظيف جدلية الحياة والموت في مسار فانتازي، هو وسيلة لاستنطاق اللاوعي بما يحمله من رؤية فنية خاصة تتجاوز الفكرة التي يمكن أن تحيط بها الرواية.
- وظّفت الروائية عدة مظاهر عجائبية لنقد الواقع المعيش بطريقة فانتازية محبكة .
- إنّ الأحداث المفككة والمتشظية التي عمدت الكاتبة إلى الاستعانة بها، هي وسيلة لبيان الفوضى والخراب المستشريان في البلد.

الهوامش:

1- فن الرواية: كولن ولسن، تر: د. محمد درويش، الدار العربية للعلوم، ناشرون، ط1، 2008، 233.
2- السرد الديستوبي في الرواية العراقية المعاصرة 2014-2022 (أطروحة)، رشا قاسم فياض: 18.
3- أدب الفانتازيا (مدخل الى الواقع): ت. ي. أبتر، تر: صبار سعدون السعدون، دار المأمون، بغداد، 1989: 10.
4- معجم السرديات، مجموعة من الباحثين العرب، اشراف: محمد القاضي، تونس، ط1، 2010: 285.
5- أدب الفانتازيا: 36.
6- مدخل الى الأدب العجائبي، تزفيتين تودوروف، تر: الصديق بو علام، مراجعة محمد برادة، دار شرقيات للنشر والتوزيع- القاهرة: 65.
7- ينظر: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، سعيد علوش، دار الكتاب اللبناني- بيروت، ط1، 1985: 170.
8- ينظر: العجائبي في الأدب من منظور شعرية السرد، حسين علام، مطابع الدار العربية للعلوم- بيروت، ط1، 2010: 29.
9- شعرية الرواية الفانتاستيكية: 66.
10- ينظر: العجائبي في رواية الطريق الى عدن، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، د. فيصل غازي النعيمي، مج 14، ع2، 2007، 11.
11- مدخل الى الأدب العجائبي: 68
12- ينظر: الغرابة والمفهوم وتجلياته في الأدب، د. شاكر عبد الحميد، سلسلة عالم المعرفة، د.ط، 2012: 82.
13- رواية حاموت: 7.
14- م. ن: 17.
15- م. ن: 71.
16- م. ن: 81.
17- الرواية : 25.
18- م. ن : 35.
19- م. ن: 56.
20- شعرية الرواية الفانتاستيكية : 45.
21- الرواية: 61.
22- م. ن: 46.
23- الخيال(مفهوماته ووظائفه) ، عاطف جودت نصر، الهيئة المصرية العامة لكتاب، القاهرة، 1984: 65.
24- الرواية : 87-88.
25- م. ن : 74.
26- م. ن: 73.
27- الفانتازيا في الرواية العربية رواية (متاهات الأعراب في ناطحات السراب)، ثامر إبراهيم محمد المصاروة: 1041.
28- الرواية: 56.
29- م. ن: 35.
30- م. ن: 46.

31- م. ن : 84.
32- م. ن: 33.

المصادر والمراجع:

1- أدب الفانتازيا (مدخل الى الواقع): ت. ي. أبتر، تر: صبار سعدون السعدون، دار المأمون، بغداد، 1989.
2- الخيال(مفهوماته ووظائفه) ، عاطف جودت نصر، الهيئة المصرية العامة لكتاب، القاهرة، 1984.
3- رواية حاموت، وفاء عبد الرزاق، دار أفاتار للطباعة والنشر-مصر، ط2، 2019.
4- السرد الديستوبي في الرواية العراقية المعاصرة 2014-2022 (أطروحة)، رشا قاسم فياض، جامعة ذي قار- كلية الآداب، 2023.
5- شعرية الرواية الفانتاستيكية، شعيب حليفي، منشورات الاختلاف- الجزائر، ط1، 2009.
6- العجائبي في الأدب من منظور شعرية السرد، حسين علام، مطابع الدار العربية للعلوم- بيروت، ط1، 2010.
7- العجائبي في رواية الطريق الى عدن، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، د. فيصل غازي النعيمي، مج 14، ع2، 2007.
8- الغرابة والمفهوم وتجلياته في الأدب، د. شاكر عبد الحميد، سلسلة عالم المعرفة، د.ط، 2012.
9- الفانتازيا في الرواية العربية رواية (متاهات الأعراب في ناطحات السراب)، ثامر إبراهيم محمد المصاروة، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج43، ملحق2، 2016.
10- فن الرواية: كولن ولسن، تر: د. محمد درويش، الدار العربية االعلوم ناشرون، ط1، 2008.
11- مدخل الى الأدب العجائبي، تزفيتين تودوروف، تر: الصديق بو علام، مراجعة محمد برادة، دار شرقيات للنشر والتوزيع- القاهرة.
12- معجم السرديات، مجموعة من الباحثين العرب، اشراف: محمد القاضي، تونس، ط1، 2010.
13- معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، سعيد علوش، دار الكتاب اللبناني- بيروت، ط1، 1985.